

الحوار في الحضارتين العربية والغربية  
دراسة لكتاب أبي حيان التوحيدي  
"الإمتاع والمؤانسة"  
وكتاب "محاورات الفرد نورث هوايتهد"

حليمة قاسم علي\*

### الملخص:

يقال إن أساس الفكر حوار، ومنذ القدم كان الإنسان يعبر عن نفسه وفكره بالحوار وبالحديث من قبل اكتشاف الكتابة وسيلة فنية من وسائل التعبير، ولو قارنا بين الحوار الشفهي وبين الكتابة فإنه لا مجال للمقارنة بينهما، فمن المستحيل على الكلام الشفهي أن يقاس إلى الكتابة في التعبير عما يضطرب في النفس من مشاعر وما يدور في الرأس من أفكار.

وعلى الرغم من أن للحديث الفني هذا الخطر البالغ، فإن تاريخ الأدب لا يفسح له مكاناً ملحوظاً بين غيره من الأغراض النقدية، ومن الأمثلة القليلة على ذلك محاورات أفلاطون، التي يعدها البعض أم المحاورات في العالم، فكل ما جاء بعدها تأثر بها، سواء أكان ذلك في الآداب الغربية أم الشرقية، ومن ذلك حديث "جونسون" كما صورته مرافقه "بوزول"، وكذلك حديث "جيته" كما سجله "أكرمان" ومحاورات "هوايتهد" كما سجلها "لوسيان برايس".

وفي أدبنا العربي نجد منتديات أدبية مثل منديات "مي زيادة" و"العقاد"، وقديماً نجد (ألف ليلة وليلة)، كما يحفل أدبنا بمقابسات أبي حيان التوحيدي: وهو تسجيل لمختارات مما سمعه التوحيدي من فحول العلماء والمفكرين في بغداد في مجلس صديقه أبي سليمان المنطقي، فقد كانت تقع في ذلك المجلس محاورات ومذكرات في موضوعات متشعبة من الآداب والفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم الكلام وغيرها.

وقد جاءت هذه المقابسات متممة لما بدأت في كتاب الإمتاع والمؤانسة، ومن الإيمان بأن مجال المحاوره والحديث علامة من علامات التطور الاجتماعي والفكري والحضاري، رأيت أن أتوقف عنده قليلاً من خلال أخذ نموذجين مختلفين من حضارتين مختلفتين الحضارة العربية في العصر العباسي في بغداد ويمثلها أبو حيان التوحيدي، والحضارة الغربية في القرن العشرين في أمريكا ويمثلها "نورث هوايتهد".

\* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب - جامعة سبها

## مقدمة

المحاورة في اللغة هي: المجاورة والتحاور: التجاوب، وتقول: كلمته فما أحرار إلى جواباً وما رجع إلى حويراً ولا حويرة ولا محورة ولا حواراً أي ما ردّ جواباً.<sup>(١)</sup> والمحاورة في الاصطلاح هي "نوع أدبي تتجادل فيه الشخصيات في موضوع ما"،<sup>(٢)</sup> وعرف جبور عبد النور المحاورة بأنها "حديث يدور بين اثنين على الأقل ويتناول شتى الموضوعات، أو هو كلام يقع بين الأديب ونفسه أو من ينزله مقام نفسه كربّة الشعر، أو خيال الحبيبة مثلاً. وهذا الأسلوب طاغ في المسرحيات وشائع في أقسام مهمة من الروايات، ويفرض فيه الإبانة عن موقف، والكشف عن خبايا النفس".<sup>(٣)</sup>

ولا يقتصر الحوار على بني البشر وحدهم؛ بل قد يرقى "إلى أكثر من ذلك، فقد حاور الله تعالى بعض الأنبياء والرسل عليهم السلام، كما خاطب إبليس وادم في أكثر من مكان. فقد كلم الله الملائكة: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" <sup>(٤)</sup> وخاطب آدم -عليه السلام- فقال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ <sup>(٥)</sup> وكلم الأنبياء ومنهم إبراهيم -عليه السلام- "وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا" <sup>(٦)</sup> وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنِّ قَلْبِي﴾ <sup>(٧)</sup>.

### وقد ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ <sup>(٨)</sup>.  
والثاني قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ <sup>(٩)</sup>.  
والثالث قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ <sup>(١٠)</sup>.

## أبو حيان التوحيدي

### أولاً - اسمه ولقبه:

اسمه علي بن محمد بن العباس، وكنيته أبو حيان، واشتهر بلقبه "التوحيدي"، وقد ذكر في مقدمة الإمتاع والمؤانسة (١١) كنيته ولقبه وفي رسالة الكتابة، ولم يرد اسمه أو اسم أبيه فيما بقي من كتبه، وقيل في لقبه وسببه: إن أباه كان يبيع نوعاً من التمر يسمى (التوحيد) وهو الذي يقصده المتنبّي في قوله: يَتَرَشَّفَنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

وقد ينسب أحياناً إلى (التوحيد) (١٢) الذي هو الدين، لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وهذا الاحتمال قائم على أساس أن أبا حيان من المعتزلة، الأمر الذي نفاه محمد عبد الغني الشيخ بقوله: "إن كتاباته ومعاركه تعطي دليلاً عكسياً، فقد هاجم المتكلمين والمعتزلة بصفة خاصة ... وفي كلامه ما يشعر أنه لم يكن يحترم تسمية المعتزلة لأنفسهم بأهل العدل والتوحيد". (١٣)

وفي هذا ما يضعف أنه نسب إلى ما يسمي به المعتزلة أنفسهم من العدل والتوحيد والراجح هو ما ذهب إليه عبد الواحد الشيخ من أنه نسب إلى "تلك اللفظة التي شاع استعمالها عنده لفظاً وحققها فعلاً في تصرفاته فانطبق القول على الفعل فسمي بها"، (١٤) يقصد لفظة التوحيد التي كان يكثر من استعمالها في كل كتبه، بل نجده أدار عليها كتاباً كاملاً هو "الإشارات الإلهية"، الذي يدور حول التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى، وعلى الإنسان أن يخلع ثوب نسبه وينسب نفسه إلى الله سبحانه وتعالى، (١٥) ونراه يقول: "وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد، ولا تدل على الواحد، ولا تدعو إلى عبادته والاعتراف بوحدانيته والقيام بحقوقه والمصير إلى كنفه، والصبر على قضائه، والتسليم لأمره". (١٦)

### - مولده ووفاته:

يحيط الغموض بتاريخ مولده ومكانه، كما يحيط الغموض بتاريخ وفاته، فقد اختلف المؤرخون في ذلك، والراجح أنه ولد حوالي سنة ٣١٢ هـ في بغداد وتوفي سنة ٤١٤ هـ. (١٧) أما عن ثقافته فيعد القرن الرابع الهجري - وهو عصر أبي حيان - العصر الذهبي للعلوم والآداب، كما يعد التوحيدي موسوعة جامعة لأكثر معارف عصره، فهو متنوع الثقافة، خبير باللغة والنحو والأدب والتصوف والفقه والفلسفة وغير ذلك، وقد وصفه ياقوت الحموي بأنه: "شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له، ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن، حفظة

واسع الدراية والرواية". (١٨) وقد تلقى علومه ومعارفه على شيوخ بغداد وشيوخ البصرة وغيرهم من أعلام عصره.

#### - شيوخه:

- أحمد بن بشر بن عامر المرورودي (... - ت ٣٦٢هـ)، (١٩) فقيه شافعي، وإمام من الأئمة الذين يعتد بهم في أمر الدين، ويرجع إليهم في أصول الشريعة وفروعها.

- يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا (... - ٣٦٤هـ)، (٢٠) فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره.

- أبو سعيد السيرافي (... - ت ٣٦٨هـ)، (٢١) نحوي عالم بالأدب، وكان معتزلياً، له عدة مؤلفات وقد روى التوحيدي مناظرة جرت بين أستاذه أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني، (٢٢) فأظهر قدرة غريبة في البلاغة والإقناع وتبحر في النحو، ويذكر أبو حيان التوحيدي أن أبا سعيد قد قام بشرح كتاب سيبويه من أوله إلى آخره، مما اثار عليه حسد كثير من العلماء مثل المبرد والزجاج وأبن السراج وابن درستوية. (٢٣)

- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (... - ت ٣٨٤هـ)، (٢٤) من كبار النحويين، وكان متفنناً في علوم النحو واللغة والفقه والكلام على مذهب المعتزلة، وكان يمزج كلامه بالمنطق.

- أبو سليمان المنطقي، محمد بن طاهر بن بهرام، وهو أكبر علماء عصره في المنطق والحكمة والفلسفة والأدب، وفي الكتاب الذي بين أيدينا كثيراً ما كان أبو حيان ينقل عنه في شتى العلوم والفنون، (٢٥) وغيرهم من أعلام عصره.

تخرج التوحيدي على أيدي هؤلاء الأعلام، وتلقن أصول الفلسفة والمنطق والكلام والطبيعيات والإلهيات والتصوف والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب، وقلما نجد شخصية في عصره إلا التقاها وتحدث إليها، ويظهر ذلك من أنه روى يوماً أن الوزير ابن سعدان سأله يوماً قائلاً: "حدثني عن أبي سليمان ودرجته في العلم والحكمة، وعرفني محله فيهما من محل أصحابنا: ابن زرعه، وابن الحمار، وابن السمح، والقومسي، ومسكويه، ونظيف، ويحيى بن عدي، ويحيى بن علي، فاندفع بعد تردد في وصفهم واحداً واحداً، محلاً نفسياتهم، كاشفاً عن مواهب كل منهم ومميزاته وعيوبه، مبيّناً مكانته"، (٢٦) وسأله مرة أخرى قائلاً: حدثني عن اعتقادك في أبي تمام والبحثري فيجيبه إجابة في غاية الإيجاز والصدق. (٢٧)

وبالرغم من أن أبا حيان أرّخ للأدب والفكر في عصره، ولم يترك شاردة ولا واردة عن رجال عصره، إلا أنه نسي أو تناسى أن يؤرخ لنفسه.

#### - مؤلفاته:

ترك التوحيدي إنتاجاً خصباً في أكثر نواحي المعرفة، ونظراً لأنه قد أصيب في حياته بالبوُس والشقاء، (٢٨) ظل طوال حياته يجاهد ويشغل بالنسخ والتأليف، وكان يطمع أن يكافأ على ذلك من قبل الأمراء والوزراء ولكن دون جدوى، مع أنه -كما يقول- رأى كل من حوله من العلماء والشعراء ينعمون بالمال الوفير من الأمراء، وليس من أكثرهم من يدانيه أو يجاربه أدباً فأراد أن ينتقم من الناس فأحرق في آخر أيامه كتبه، وقال: "إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحرق ذلك كله ... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامّة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحب الألم". (٢٩)

ولم يبق من كتبه التي ألفها إلا نحو عشرين كتاباً لعلها كما ذكر السيوطي: "كتبت عنه في حياته أو خرجت من قبل حرقها". (٣٠)

ومن هذه المؤلفات ما هو مطبوع وما هو مخطوط ومنها ما هو مفقود:

#### أ) الكتب المطبوعة

- ١- البصائر والذخائر، ويسمى أيضاً البصائر والنوادر، وأحياناً أخبار القدماء وذخائر الحكماء.
- ٢- مثالب الوزيرين.
- ٣- الصداقة والصديق.
- ٤- الإمتاع والمؤانسة.
- ٥- المقابسات.
- ٦- الهوامل والشوامل.
- ٧- الإشارات الإلهية.

رسائله: رسالة السقيفة، رسالة في علم الكتابة، رسالة الحياة، رسالة العلوم.

#### ب) الكتب المخطوطة:

- ١- الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.
- ٢- رسالة لأبي الطالقاني.

### ج) الكتب المفقودة:

تقريظ الجاحظ، الرسالة البغدادية، الرسالة الصوفية، الرد على ابن جني في شعر المتنبي، رسالة في ضلالات الفقهاء، رسالة إلى أبي الفضل بن العميد، التذكرة التوحيدية، الكلام على الكلام المحاضرات والمناظرات، رسالة في الطبيعيات والإلهيات، الرسالة في أخبار الصوفية، المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس، الرسالة في الحنين إلى الأوطان، الإقناع الهفوات لابن الصابي. (٣١)

### - آراء النقاد فيه:

اختلفت آراء النقاد في مذهب وعقيدة أبي حيان، فهناك من اتهمه بالزندقة من مثل ما جاء في طبقات الشافعية نقلاً عن ابن الجوزي قوله: "زندقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو حيان والمعري، وأشدهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمج ولم يصرح". (٣٢) ولا ندري في الحقيقة كيف يمكن أن يتهم بالزندقة مع أنه لم يصرح بها أبداً في أي من كتبه.

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد من العلماء من أشاد بقدرته العلمية وموهبته، ومن هؤلاء: ياقوت الحموي إذ شهد بأنه: شيخ في الصوفية، فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء. (٣٣)

أما رأي المحدثين فنذكر منهم:

- آدم متز: ويقال أنه أول من نبّه الأذهان إلى منزلة أبي حيان في ميدان البلاغة والبيان، وانتهج لنفسه منهجاً حراً، فقد توقف أمام أسلوب أبي حيان وأدبه فأنصفه، وقدره وجعله أستاذاً لكتاب القرن الرابع الهجري، ثم جعله أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق إذ يقول: "كان أبو حيان فنانياً، غريباً بين أهل عصره، وكان يعاني وحشة من يرتفع من أهل زمانه، ويتقدم عليهم". (٣٤)

محمد كرد علي: ترجم للتوحيدي ترجمة مطولة في كتابه أمراء البيان، ورأى أنه من أمراء البيان العربي حقاً، وعدّه من أكابر المؤلفين والمنشئين في الأدب العربي، كما دافع عنه ونفى عنه أغلب التهم الموجهة إليه، وساق أدعية أبي حيان وعلق عليها بقوله: "عجيب أن يرمى من يقول هذا القول في العزة الإلهية بالزندقة، ويتهم بالمروق". (٣٥)

أحمد أمين: لقد تحدث عنه حديثاً قيماً في مقدمة الكتاب الذي بين أيدينا وكشف في ذلك عن جوانب متعددة من أبي حيان ووصف أسلوبه بالجزالة والروعة، وبأنه يهتم بأفكاره وألفاظه اهتماماً بالغاً فأسلوبه: "أسلوب أدبي راق... يحب الازدواج وبطيل في البيان ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولاً". (٣٦)

وقد تحدث عنه كذلك في كتابه "ظهر الإسلام" ورأى أنه من أشهر الكُتّاب في العصر البويهّي، وأنه يعني بالشكل كما أنه يعنى بالموضوع وأسلوبه أدبي راق. (٣٧)

محمد عبد الغني الشيخ: يرى أنه صاحب الأثر الأكبر -بعد الجاحظ- في نقاء العبارة وصفاء الأسلوب ودقة التقرير وجلاء المعنى وتنوع الثقافة، فقد "كان يلم بثقافة عصره، ويتعمق في أكثرها ويبرز بنوع خاص في الأدب والنقد واللغة والنحو..." (٣٨) و"إن مؤلفاته تعدّ دائرة معارف عصره، فقد سجل فيها كل ما حصّله من معارف وعلوم السابقين والمعاصرين وصاغها بأسلوب فريد يعز نظيره". (٣٩)

ويعدّه "من أوائل الذين سلكوا في كتاباتهم أسلوب الحوار الذي أخذ ينتشر شيئاً فشيئاً فيما بعد، كما كان أشهر من برعوا في فن المحاضرات". (٤٠)

### ثانياً- الإمتاع والمؤانسة "دراسة من الداخل"

- سبب تأليف الكتاب:

لتأليف هذا الكتاب قصة ممتعة أوردتها أحمد أمين في مقدمة الكتاب تقول: إن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ووصله به، ومدحه عنده حتى جعل الوزير أبا حيان من سمّاره، فسامره سبعاً وثلاثين ليلة كان يحدثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة، فيجيب عنها أبو حيان، ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه (أي أبي حيان) ليس أهلاً لمصاحبة الوزير لقبح هيئته وسوء عاداته، وقلة مرانته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع عقوبته، وينزل الأذى به. فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء، ونزل على حكمه، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثناؤه، والصدق في إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب، ويصرح في موضع التصريح، فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة. (٤١)

### أجواء الإمتاع والمؤانسة:

هي ليالي فلسفة وفن وأدب وتاريخ، فيها الفكاهة والمرح والمجون، فيها النقاش والمناظرة، فهي بحق ممتعة مؤنسة. وقد شارك في هذه الليالي إلى جانب الوزير والتوحيدي شخصيات على مستوى عالٍ من الثقافة والعلم والمركز الاجتماعي كابن العميد، صاحب بن عباد، أبو سعيد السيرافي، أبو بشر مثنى، أبو سليمان السجستاني، ابن يعيش... فهي طبقة الصفوة في المجتمع تلك الطبقة الأرستقراطية العقلية.

أما الموضوعات الغالبة وطريقة بحثها؛ فأوجزها فيما يلي:

- ١- إن الموضوعات التي وردت في هذه الليالي مسجلة من الذاكرة بعد حدوثها.
- ٢- الطريقة التي دار بها الحوار: أغلبها أن يلقي الوزير سؤالاً ويترك أبا حيان ليحيط له عنه دون أن يضيف هو شيئاً أو يعترض عليه، ولكنه في أحيانٍ أخرى كان يعترض ويحاور.
- ٣- ليس هناك نظام معيّن من ناحية طرح الموضوعات، فأحياناً تكون الأفكار مقتضبة جداً وأحياناً أخرى تكون متوسطة لدرجة أنها تستغرق الليلة بكاملها؛ بل وتتعداها كما في الليلة الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين والثامنة والعشرين، والثلاث ليالي؛ الثلاثون والواحدة والثلاثون والثانية والثلاثون، وغيرها.
- ٤- نجد أن المسامرات لم تكن ذات طابع واحد من حيث الموضوعات، فقد كانت متنوعة، واشتملت على أغلب أنواع المعرفة في ذلك الوقت.
- ٥- من الملاحظ كذلك أن الموضوعات الفلسفية تأتي في طبيعة الموضوعات المثارة للمناقشة والجدل، إذ نجد على سبيل المثال لا الحصر أن موضوع النفس والروح فقط أثير في عدة ليالٍ متعددة، فنجد في الليالي: التاسعة والعاشر، والثالثة عشرة، والسابعة عشرة، والرابعة والعشرين وغيرها، وفي المقابل نجد قلة في بعض الموضوعات منها الطب والهندسة.
- ٦- قد لا تجري بعض الموضوعات مجرى الحديث والحوار؛ بل تكون مكتوبة مسبقاً وتقرأ على الوزير كالليالي: السابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرين، والثالثة والعشرين وغيرها.
- ٧- قد يكون موضوع الحديث تلخيص لكتابٍ ما لأحد العلماء، كتلخيصه لكتاب "اتقاء البشر من الجبر والقدر" للعامري، وكتاب قدامه بن جعفر في البلاغة، وتعرضه لرسائل إخوان الصفا.
- ٨- من الملاحظ كذلك أن أغلب ما ورد في هذه الموضوعات ورد على السنة غيره من العلماء والفلاسفة.
- ٩- الموضوعات التي دارت في بعض الليالي كانت قد عيّنت مسبقاً من الوزير في الليلة التي قبلها، وذلك كما في الليلة التاسعة، إذ عيّنت فيها موضوع الليالي الآتية: العاشرة، والحادية عشرة، والثالثة عشرة.

ومن خلال عرضه لتلك الموضوعات نستطيع أن نسجل:

- ١- يميل أبو حيان إلى تحليل الموضوعات والأفكار تحليلاً يدل على تمكنه مما يقول، وإنه على علم تام به، كما نجده يميل إلى ربط الأسباب بالمسببات، مما يدل على أنه على مستوى عالٍ من الثقافة.
- ٢- جاء أسلوبه على الأغلب سهلاً واضحاً جزلاً، اللهم في بعض الموضوعات الفلسفية العميقة وهو في رأينا فيها يميل إلى الغموض بعض الشيء، وقد يرجع ذلك إلى طبيعة الموضوع.



٣- تواضع التوحيدي، حيث نجده يستفسر من غيره من العلماء إذا أشكل عليه موضوع ما، أولم يكن ملماً إماماً تاماً به.

٤- شخصية التوحيدي كانت بحق مثال الإنسان المثقف الواعي بقضايا عصره ومشاكله الاجتماعية والعلمية، إذ نجده يتحدث في الأدب، واللغة والفقه، والفن والفلسفة، والمنطق، والطبيعة والحديث، "فالتأهب الثقافي كان العامل الأول في تكوين شخصية التوحيدي". (٤٢)

#### ثالثاً- الإمتاع والمؤانسة (دراسة من الخارج)

- وصف الكتاب:

يعد الكتاب من أهم آثار أبي حيان التوحيدي، والنسخة التي بين أيدينا صدرت في ثلاثة أجزاء عن منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، قام بتحقيقه ونشره الأستاذ أحمد أمين والأستاذ أحمد الزين، وقد كتب له الأستاذ أحمد أمين مقدمة قيّمة، كشف فيها جوانب كثيرة من الكتاب ومؤلفه، والكتاب وضعه مؤلفه مقسماً إلى أربعين ليلة.

ونستشف من خلال الكتاب شخصية مؤلفه، فجاناب العالم نجد الإنسان البائس الفقير الضائق بالحياة والأحياء، المتشائم من الوجود، وقد بلغ به اليأس مبلغه حتى قال: "غدا شبابي هرماً من الفقر، والقبر عندي خير من الفقر". (٤٣)

كما تصوّر لنا هذه المحاورات حدة ذكاء التوحيدي، وحضور بديهته، وبراعته في الحوار، وموازنته بين معانيه وألفاظه، إذ يقول: "لا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ". (٤٤)

- روح العصر الثقافية:

لعل من أسباب نبوغ أبي حيان تأثره بروح عصره، فقد ازدهرت في عصره العلوم بشتى أنواعها، فإذا كان العصر العباسي الأول هو العصر الذهبي للدولة الإسلامية، فقد كان ذلك من حيث منعة الدولة، واتساع السلطان، وفيه نقلت العلوم القديمة إلى العربية، وأما عصر الإسلام الذهبي للعلم خاصة فهو العصر العباسي الثالث؛ لأن فيه نضجت العلوم على اختلاف أنواعها، فظهرت الكتب في جميعها، وعقد الخلفاء مجالسهم يستشرون العلماء، ويشجعونهم على طلب العلم، كما كان هناك نوع آخر من المجالس العلمية تعقد بالمساجد تسمى (حلقات).

وأحياناً كان التعليم يتم بالمراسلة، فإذا اشتهر عالم بفن أو علم، كانت تأتيه الرسائل من جميع الأقطار تسأله في مسائل شتى كالأئلة التي كانت ترد على السيرافي من الملوك. (٤٥)

## - البعد العلمي والفكري للكتاب:

قال القفطي عنه: "وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ((ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلاً ملحفاً)) (٤٦) وفي الكتاب النص الوحيد الذي كشف لنا عن مؤلفي إخوان الصفا، (٤٧) وقد نقله القفطي منه، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها، وعن القفطي نقله كل من كتب عن إخوان الصفا، كما أن الكتاب يلقي الضوء على الحياة السياسية للدولة، فيصف الشعب وموقفه من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم، وأسباب ذلك، فالكتاب يلقي الضوء على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع في شتى نواحيه.

## هوaitهد:

### اولا- حياته ومؤلفاته:

فيلسوف إنجليزي من فلاسفة الواقعية المحدثة، ولد ألفرد نورث هوaitهد في الخامس عشر من فبراير عام ١٨٦١ في مدينة رامزجيت من مقاطعة كنت في إنجلترا، من أسرة اشتغل معظمها بأعمال تتصل بالتربية وبالكنيسة والإدارة المحلية. (٤٨) وكانت تربيته كلاسيكية الطابع على غرار ما كان سائداً في عصره، فقد بدأ تعلم اللاتينية وهو في العاشرة، واليونانية وهو في الثانية عشرة، وتخلل تلك الدراسة دروس الرياضة حتى أنه أعفي في المدرسة من بعض الدراسات القديمة لينفق في الرياضة وقتاً أطول، وذلك لما أبداه من استعداد في هذا الاتجاه، حتى أنه اختار هذا الاتجاه أثناء دراسته في الجامعة. دخل جامعة كمبردج في خريف ١٨٨٠ فدرس الرياضة مادة تخصصه على أيدي أساتذة كفاءة حتى ألم بجانبها: البحثي والتطبيقي، كما كانت هناك حلقات نقاش بين الطلاب والأساتذة تجري كل مساء، ولم تكن هذه الجماعات تربطها وحدة التخصص في الدراسة؛ بل كانت متنوعة فكانوا يتناولون كل شيء من سياسة ودين وفلسفة وأدب، مما سيكون له أوضح الأثر في دراستنا لهذا الكتاب.

وعندما فرغ هوaitهد من دراسته الجامعية سنة ١٨٨٥ عيّن في نفس الجامعة مدرساً حتى عام ١٩١٠ ثم انتقل إلى لندن، وفي سنة ١٨٩٠ تزوج من زوجته التي نراها بارزة الأثر في المحاورات التي نحن بصددتها. (٤٩)

- ويقسم نشاط هوaitهد الفكري إلى ثلاث مراحل: (٥٠)

الأولى: مرحلة الأبحاث الرياضية والمنطقية (١٨٩٨-١٩١٤)

والثانية: مرحلة علم الطبيعة (١٩١٧-١٩٢٥)

والمرحلة الأخيرة: هي مرحلة الميتافيزيقا (١٩٤٧-١٩٢٦)

وكانت أول مؤلفات هوايتهد العلمية كتاب "رسالة في الجبر العام" فاختر بسبب هذا الكتاب عضواً في الجمعية الملكية سنة ١٩٠٣، أما عمله الفلسفي فبدأ بعد ذلك بزم من طويل، وعلى أساسه اختير في سنة ١٩٣١ زميلاً في الأكاديمية البريطانية.

وحدث في سنة ١٩٠٣ أن نشر برتراند رسل كتابه "أصول الرياضة" على أن يكون الجزء الأول يتلوه جزء ثان، كما كان كتاب هوايتهد في الجبر جزءاً أولاً يتلوه جزء ثان، فاستكشف كل منهما أن الجزء الثاني المعترزم صدوره يتناول موضوعات هي هي بعينها، فاتفقا على أداء عمل مشترك فاستغرقا في ذلك ثماني سنوات يعملان معاً حتى أخرجتا كتابهما "أسس الرياضة".

وأول مؤلفاته التي أصدرها أثناء مقامه في لندن (١٩٢٤-١٩١٠) "مدخل إلى الرياضة" سنة ١٩١٠، ثم "تنظيم الفكر" ١٩١٦، ثم بحث "في أصول المعرفة الطبيعية" ١٩١٩، و"فكرتنا عن الطبيعة" ١٩٢٠، و"أصول النسبية مع تطبيقات على الفيزياء" ١٩٢٢.

وفي عام ١٩٢٤ وكان عمره ثلاثة وستين عاماً تلقى دعوة من جامعة هارفرد بالولايات المتحدة الأمريكية، ليكون أستاذاً للفلسفة بها، وفيها أتم تطوير فلسفته الميتافيزيقية، وبقي هناك حتى وفاته، وفي هذه الفترة أخرج أهم كتبه على الإطلاق، فأخرج "العلم والعالم الحديث" ١٩٢٥، و"الدين في طور التكوين" ١٩٢٦، و"المنهج الرمزي: معناه وأثره" ١٩٢٧، و"أهداف التربية" ١٩٢٨، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية، و"التطور وعالم الواقع" ١٩٢٩، ومهمة العقل" ١٩٢٩، و"مغامرات أفكار" ١٩٣٣، وكذلك قد ترجم هذا الكتاب إلى العربية، و"الطبيعة والحياة" ١٩٣٤، و"صنوف الفكر" ١٩٣٨، و"مقالات في العلم والفلسفة" ١٩٤٧، وهنا يتوقف به الأجل عن مواصلة الرحلة، فقد مات في الثلاثين من ديسمبر في السنة ذاتها، (٥١) وقد بلغ من العمر السابعة والثمانين عاماً، وأطلق اسمه على إحدى الجامعات الأمريكية فيما بعد.

**ثانياً- محاورات هوايتهد (دراسة من الداخل)**

**- الأمسيات الثقافية:**

هي أمسيات ثقافية كانت تعقد في بيته بينه وبين طلابه وأصدقائه، والذين من بينهم الصحفي (لوسيان برايس)، (٥٢) فسجل هذه الحواريات وقد كانت تقع في تواريخ غير منتظمة، فهي أحياناً متقاربة، وأحياناً العكس فقد تصل المسافة الزمنية بينها إلى السنة.

وقد يلتزم الكاتب بتسجيل الحوار كما ورد متسلسلاً مثل العودة إلى حديث سابق إن دعت ظروف الحوار إلى ذلك، وأحياناً أخرى يكتفي باختيار أفكار معينة وردت عن الموضوع كأن

يقول: وخلال مناقشتنا لهذا الموضوع قال فيما بعد ... أو كان يقول عند قدوم أحد الضيوف متأخراً "وجاء متأخراً بعض الشيء، وقبيل وصوله كان مضيفنا يقول: "... (٥٣)

وقد شارك في هذه المحاورات شخصيات على قدر عال من الثقافة والفكر، ومن مختلف الجنسيات، ففيهم رئيس الجامعة، وأمين متحف للفنون، ودارس القانون، والضابط البحري، والمؤرخ، والروائي، وعالم الفسيولوجيا، وأستاذ الطب، والطالب والفيلسوف، إلى غير ذلك. وأما الأحاديث فقد كانت شاملة متنوعة في شتى الموضوعات، ويرجع ذلك بالطبع إلى تنوع ثقافة الأشخاص المشاركين فيها، فنجد الحديث في الدين، (٥٤) والتاريخ، (٥٥) وعلم الجمال، (٥٦) والتربية والتعليم، (٥٧) والصحافة، (٥٨) وعلم الاجتماع، (٥٩) وتقدم العلوم، (٦٠) والحضارة، (٦١) والحرب، (٦٢) والخمر، (٦٣) والعنصرية بأنواعها، (٦٤) والشعر، (٦٥) وعن الجامعات المنح التي تقدم، (٦٦) والكتابة، (٦٧) والحكم والأحكام، (٦٨) والمسرح، (٦٩) والإدارة، (٧٠) والأدب، (٧١) والتصوير، (٧٢) والموسيقى، (٧٣) وعلم النفس والتحليل النفسي، (٧٤) والفن والمهارات الفنية، (٧٥) وغيرها من الموضوعات، وقد كان الحديث يطول أو يقصر حسب الظروف وحسب الموضوع والمناسبة.

#### - طريقة تسجيل الحوار:

والمنهج في ذلك كما بدا لي أورده باختصار في النقاط الآتية:

- ١- بداية الحوار تلقائية في أغلب الحواريات وغير معد مسبقاً، فهي كأبي حديث يدور بين جماعة من أناس على مستوى متقارب من الثقافة، فقد يبدأ أحد المتحاورين بملاحظة عامة عن شيء معين ثم يسترسل الحوار؛ كالانتقال من منزل في مدينة إلى منزل في مدينة أخرى، وموازنة حياتهم بكتنيتهم، ووصف المسرح مثلاً كما عرفوه في تلك المدينة وهكذا ...
- ٢- قد يبدأ الحوار بسؤال يوجهه أحد الحاضرين للآخر، ثم تتبادل وجهات النظر بينهم.
- ٣- أما في حالة الانتقال من موضوع لآخر فهو أحياناً يكون تسلسلياً، تمليه ظروف الحوار وتشعبه، وأحياناً أخرى عفوية، كالحديث عن الخمر طالما وضعت على المائدة زجاجة خمر، (٧٦) وأحياناً يكون فجائياً كملاحظة وردت في ذهن أحدهم.
- ٤- العودة إلى حديث سابق.

٥- بدء الحديث قد لا يقتصر على الأستاذ هو ابتهد، وإنما قد يبدأ من قبيل أحد الضيوف، وكذلك نوعية الحديث قد لا تقتصر على اتجاه محدد بل يبدأ بالشؤون العامة، وذلك كما جاء على لسان هو ابتهد نفسه إذ يقول: "إنني أؤمن أشد الإيمان بأن أسمح للضيوف بالبداية في الحديث في الشؤون العامة حتى ينفصوا ما لديهم ويكتسبوا حرارة الغرفة". (٧٧)

#### ثالثاً- محاورات هو ابتهد (دراسة من الخارج)

## - وصف الكتاب

يقع الكتاب في ٤٨٥ صفحة من القطع الكبير، سجلها الصحفي "لوسيان برايس"، وهو صحفي أمريكي كان قد تخرج من جامعة هارفرد سنة ١٩٠٧، وعمل محرراً بمجلة "جلوب" التي تصدر في بوسطن، وهو عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، نال ثقافة واسعة في الموسيقى، والدراما والفلسفة الإغريقية والتاريخ القديم والحديث والآداب، وأهله النظام الذي يسيّر عليه العمل في الصحافة لكتابة هذا الكتاب.

وترجم هذه المحاورات الأستاذ محمود محمود مدير عام تفتيش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم سابقاً بالشقيقة مصر. وقدم لها: الدكتور زكي نجيب محمود، أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً.

ثم فاتحة الكتاب والتي تناولت حياة هوايتها العلمية والاجتماعية بالتفصيل، وبعد ذلك الأحاديث، وهي تتألف من ثلاثة وأربعين حديثاً دارت في بيته بينه وبين طلابه، والتي سجلها - كما سبق ونوهت- الصحفي "لوسيان برايس" لنفسه، كما كانت تقع، فاختر منها ثلاثة وأربعين حديثاً، أولها حديث السادس من أبريل عام ١٩٣٤ وآخرها حديث الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٤٧، أي قبل أقل من شهر من وفاة هذا العالم، ثم في نهاية الكتاب خاتمة، وهي حديث لزوجة هوايتها عن الأيام الأربعة الأخيرة من حياة زوجها.

نُشر هذا الكتاب من قبل دار المعرفة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (القاهرة - نيويورك)، يوليو سنة ١٩٦١.

## - دلالة هذه المحاورات على ثقافة هوايتها:

تعد هذه المحاورات المرأة العاكسة لثقافة هذا العالم البالغة الاتساع، ويظهر ذلك إما من تنوع الموضوعات المناقشة أو طريقة طرحها ومعالجتها، والتي تكون مناقشة عامة أحياناً وعميقة أحياناً أخرى؛ بل لدرجة الخروج بنظريات، كما في الحديث عن المحاور الفنية والفن والتمثيل عليها، (٧٨) وأحياناً يأخذ الحديث مجرى التحليل والدراسة كمناقشة أحد كتبه أو مقالاته كالحديث عن كتابه (مغامرات الأفكار)، وعن مقالته (الذكرى المئوية الثالثة لهارفرد)، (٧٩) أو كالحديث عن محاضرات قديمة كانت قد ألقيت من قبل هوايتها، (٨٠) أو مناقشتهم لرسائل كتبت عن عصر من العصور، كالرسائل الثلاث بعنوان "ثلاثة أجيال من النساء الإنجليزيات" من ضمنها رسالة كتبتها "سارة أوستن" إلى "سنت هيلير" في ٧ يوليو من عام ١٨٥٦ عن بسمارك، وفيه تنبؤ يدعو إلى العجب -على حد زعمهم- عن الوحدة الألمانية، (٨١) أو مناقشتهم للروائي "جوزيف دينين" عن آخر رواياته وهي "العنبر رقم ٨"، والتي كانت قد ظهرت في ذلك العام، (٨٢) أو كالحديث عن مقالين كتبهما الصحفي "لوسيان" عن حركة هتلر نحو إعادة التسليح. (٨٣)

وقد ينهي الموضوع بشبه حكمة مستقاة من الحياة، كما جاء في المحاوراة الرابعة مثلاً عن عدم التمسك بمكان ما إن كان أمدنا في يوم من الأيام بخبره بهيجة، إذ يقول: "أعتقد أنه من الخطأ أن تتشبث بمكان لأنه أمدك بخبرة بهيجة ذات يوم، إنك بذلك إنما تحتفظ بملك زائل، لا تتمسك بالقديم لأنه أدخل على نفسك السرور في وقت من الأوقات؛ بل انتقل إلى ما يليه، إلى الإقليم المجاور، والخبرة التالية، لقد خلفنا وراءنا سلسلة من المساكن البهيجة، وكلها آية في الروعة، وكان كل منها في وقت من الأوقات يعني لنا كل شيء، ولكننا لا نأسف اليوم على أي منها بعدما تركناه"، (٨٤) ويظهر من خلال هذه المحاورات أنه كان يكتب لكل الناس بأسلوب سهل بسيط ولا يقتصر على طبقة معينة، إذ نجده يقول: "أنا أكتب للرجل العادي، وفي سبيل ذلك أتحاشى الألفاظ الفنية التي يألّفها الفلاسفة". (٨٥)

#### - واقع المجتمع من خلال الحواريات:

على الرغم من أن هذه المحاورات تدل على المكانة العالية التي بلغتها المجتمعات الغربية من رقي علمي وفكري يتمثل في الاختراعات والاكتشافات في شتى العلوم وفي مدة قصيرة كما في أمريكا (٣٠٠ عام)، فإننا نجد بالمقابل ما تعانیه هذه المجتمعات من تفسخ، وليس هذا فقط بل الفخر به كألمانيا مثلاً". (٨٦)

أو ما تعانیه هذه المجتمعات بعد الحرب من مثل الحالة التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية، وكان هذا الحديث بعد انتهاء الحرب الثانية بوقت قصير، والفجوة الاجتماعية التي حددت بعدها، (٨٧) أو سوء المعيشة والحالة الاقتصادية في بعض البلدان الأوروبية والأمريكية، (٨٨) أو الانحلال الاجتماعي، ومطاردة العلماء، وأنهم في فزع دائم. (٨٩) أو عن العنصرية لدى بعض الأقليات، (٩٠) إلى غير ذلك مما كان سائداً في تلك الفترة في المجتمعات الغربية بلحوا ومرّها.

#### بين التوحيدي وهو ايتهد:

سبق وأن ذكرنا أن محاورات هو ايتهد تتألف من ثلاثة وأربعين حديثاً، أولها حديث السادس من أبريل عام ١٩٣٤، وآخرها حديث ١١ نوفمبر ١٩٤٧، وأحاديث أبي حيان الواردة في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، وتتألف من سبعة وثلاثين حديثاً، وقع كل منها في ليلة من الليالي التي قضاها في حضرة الوزير أبي عبد الله العارض، ثم دون أبو حيان هذه الليالي لأبي الوفاء المهندس.

فأبو حيان في إجاباته البارعة الرائعة عن أسئلة الوزير، هو هو ايتهد في إجاباته البارعة الرائعة عن أسئلة طلابه وأصدقائه، وأبو الوفاء المهندس الذي كان له فضل تسجيل تلك الأحاديث، هو لوسيان برايس الذي كان له فضل تسجيل محاورات هو ايتهد، والحديث في كلتا الحالين مكتوب من الذاكرة بعد أن حدثه، والوزير في قصة أبي حيان يقابله المجتمع المثقف في قصة هو ايتهد،

وقصر الوزير الذي دارت فيه تلك الأحاديث في القرن الحادي عشر الميلادي يقابله مسكن متواضع من أربع حجرات لهوايته، هو الذي جمع الأصدقاء وشهد الحوار في القرن العشرين.

والطريقة في الكتابين واحدة؛ ففي حالة أبي حيان كان الوزير أحياناً يعد سؤالاً يليق به ويترك أبا حيان يجيب له عنه دون أن يضيف هو من عنده شيئاً أو يعترض على شيء، لكنه أحياناً أخرى كان يعترض ويحاور، وكذلك الحال مع هوايته، والموضوعات في كل من الكتابين قد تنوعت تنوعاً شمل صنوفاً متباينة من المسائل، وأتاح لصاحب الإجابة الفرصة ليعبر عن نفسه من شتى نواحيه، فما أظن أن أبا حيان قد ترك جانباً من جوانبه لم يظهره في الجواب عن هذا السؤال أو ذلك، وكذلك كانت الحال مع الفيلسوف هوايته.

ومما يوضح مواضع الشبه ومواضع الخلاف بين هذين المحدثين العظيمين؛ التوحيدي وهوايته -وما الشبه والخلاف بين رجلين كهذين إلا انعكاس لأوجه الشبه والخلاف بين عصرين وثقافتين- إنه لما يوضح مواضع الشبه والخلاف بينهما أن نتعقب فكرة بعينها، كيف وردت في سياق الحديث عند التوحيدي من جهة، وعند هوايته من جهة أخرى.

### رأيهما في بعض الموضوعات المشتركة:

فمثلاً لو نظرنا في محاورتهما عن موضوع الترجمة، وفي الحديث عن قيمة دراسة اللغة في أصولها -خاصة اليونانية- نجد أن التوحيدي ينقل لنا في الليلة الثامنة ما دار في مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى، قال أبو سعيد يتساءل: "هل تلزم الحاجة أحياناً إلى معرفة اللغة الأم؟ وكيف تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عفت منذ زمان طويل، وبأد أهلها، أو انقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضها بتصاريفها؟ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونانية إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟

قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدّت المعاني، وأخلصت الحقائق. (٩١)

ويتناول هوايته الموضوع ذاته في الليلة الخامسة فيقول: "أما عن قيمة دراسة اللغة في أصولها، فإنني أعتقد أننا نستطيع أن نستمد من الترجمات أكثر ما فيها من مميزات، ولقد قرأت العهد الجديد في أصله وأنا شاب ووجدت اليونانية -كلغة- لا تستحق التقدير، وأفضل منها بكثير الترجمة إلى إنجليزية أوائل القرن السابع عشر، أن تسعين في المائة من هيرودوت العزيز يمكن الحصول عليه من الترجمة، وكذلك ستون أو سبعون في المائة من ثيد سيديدي؛ بل إن أفلاطون المقدس ذاته لا يفقد الكثير في الترجمة، ولقد قمت بتدريس كثير من خير محاوراته لفصول متتابعة

من الطلبة، وكثيراً ما سألت نفسي أيّة قيمة لما تحتويه من آراء تبرر الجهد الذي يبذل في سبيل تعلم اللغة". (٩٢)

وفي موضوع آخر يتناول التوحيدي قضية عجز اللغة أحياناً عن التعبير عما تكنه النفس، ففي كلامه في مراتب النظم والنثر يقول نقلاً عن أحد العلماء: "الكلام ينبعث أول مبادئه إما عن عفو البديهة، وإما عن كدّ الرواية، وإما أن يكون مركباً منهما، وفيه قواهما بالأكثر والأقل، ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كدّ الرواية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل، أو عيب المركب منهما بقدر قسطه منهما، الأغلب والأضعف، على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائب التعسف كان بليغاً مقبولاً... والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنما هو في هذا المركب الذي يسمى تأليفاً ورصفاً، وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح وأن تكون صورة الحسن في الرويّة ألوح". (٩٣)

ويقر في مكان آخر بعد حديث مطول بقوله: "قد بان أن مركّب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل، والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة، وليس في قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، وينصب عليه سوراً، ولا يدع شيئاً في داخله أن يخرج، ولا شيئاً من خارجه أن يدخل". (٩٤)

ويذكر هوايته عجز الألفاظ عن التعبير عما يعين من أفكار ومعان داخل الذهن في مواضع شتى، ففي المحارة (الرابعة والثلاثون) يقول: "إن الألفاظ لا تعبر عن أعمق ما ندركه بالبداهة؛ بل إننا لنفقدّه عند محاولة صياغته في ألفاظ، نحسب الألفاظ أشياء ثابتة ذات معان معينة، والواقع أن معاني الألفاظ اللغوية في تذبذب شديد، وجزء كبير مما نحاول أن نعبر عنه باللفظ يقع خارج نطاق اللغة". (٩٥)

ويستغرب في محاوره أخرى فيقول: "يدهشني عجز اللغة عن التعبير عن آرائنا التي نعيها، وعجز تفكيرنا الواعي عن التعبير عما في عقولنا الباطنة... إن أكثر ما نفكر فيه وما نقول بعقولنا الواعية وبكلامنا ضحل سطحي، وفي اللحظات النادرة فقط يظهر في الفكر الواعي أو في التعبير ذلك العالم الأعمق الأوسع، وتلك اللحظات الجديرة بالذكرى في حياتنا حينما نحس -حينما نعلم- أننا لسنا سوى أدوات لقوة أعظم من أنفسنا لأغراض أعلى وأبعد مدى من أغراضنا، وتكثر هذه اللحظات عند العباقرة، ولكن كل امرئ تقريباً تمر به لحظات قلائل يشرق فيها هذا الضياء، وللشعراء أهمية هنا، لأنهم يعبرون عن هذا الوحي العظيم بالألفاظ أفضل مما يعبر عنه أكثر الفلاسفة، (٩٦) ويرد على أحد زملائه حين يقول: إنه ليست هناك آراء لا يمكن التعبير عنها بوضوح في لغة بسيطة، يرد بقوله: "إنني أعتقد أن آراءك لا بد أن تكون سطحية". (٩٧)



ويستطرد عند حديثه عن الشعر فيقول: "إن الإمساك بالخبرة الوجدانية قبل أن تفلت فتختفي هو من أخطر خصائص الشعر الرفيع، فهو عندئذ يكاد يوفق إلى تصيّد إحدى لحظات السعادة النشوى أو الألم الأليم، يتصيدا في أحبولة الكلمات على نحو يقربها إلى القارئ أو السامع، لأن اللفظ - على كل حال - هو صوت والعلاقة بين الصوت من جهة وبين الوجدان الذي تضطرب به النفس من جهة أخرى هي علاقة متكلفة متعسفة، وإذا شئت فاستخرج معاني كلمات القصيدة كما وردت في المعجم واجمع تلك المعاني بعضها إلى بعض تجد البون شاسعاً بين حصيلتها وبين ما قصد إليه الشاعر، لأن الشاعر قد أضاف إلى معانيها المعجمية نغمات عاطفية، وكثيراً ما تضاف هذه الإضافة إلى معنى الكلمة فيما بعد، فتصبح جزءاً منه، وبهذا يغزر معنى الكلمات بفضل الشعراء على أنه مهما بعدت الألفاظ عن كوامن النفس فهي في الشعر أقرب ما تكون إليها، ففي الشعر وحده تتجلى البواطن النفسية الخوافية، حتى لنحس ونحن نقرأ الشعر أو نسمعه أننا نجد فيه أنفسنا. (٩٨)

ويتعرض الفيلسوفان لفكرة أخرى، وهي الفوارق التي بين الأمم والشعوب والمفاضلة بينها، فأما التوحيد فيرى أنه ليس لأمة واحدة فضيلة تخلو من نقص ولا نقص يخلو من فضيلة، فالحالة الكاملة عنده هي التي تندمج فيها الشعوب كلها لتلتقي الفضائل كلها في شعب واحد، يقول في الليلة السادسة: "... لكل أمة فضائل ورتائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقدير، ويقضي هذا بأن الخبرات والفضائل والشؤون والنقائص مفاضة على جميع الخلق، ... فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللروم العلم والحكمة، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأنأة، وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكذب والفرح، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمّام والخطابة والبيان. ثم إن هذه الفضائل المذكورة في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها من هو عارٍ من جميعها وموسوم بأضدادها". (٩٩)

وأما هو يتهد فخلاصة الرأي عنده هي أن خير المدنيات هو ما جاء من شعب اختلطت في نسيجه خيوط العنصرية، وكلما صفا الجنس كان أقرب إلى الانحلال، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة فيقول: "إن أحسن المدنيات هو ما نشأ عن الامتزاج العنصري: النورمان مع الفرنسيين، والنورمان الفرنسيون مع الأنجلوساكسون، والغزاة الدوريون في انكا مع أبناء البلاد ... وإذا كان العنصر نقي الدماء، فالأرجح أن يكون الشعب غيباً حتى تختلط دماؤه بدماء أخرى أشد حيوية، وأعتقد أن الدماء السامية قد اختلطت بدرجة كبيرة بالدماء الأيونية، فكان من هذا الاختلاط تلك الثقافة المستنيرة الأصيلة". (١٠٠)

وعن الأماكن التي قامت بها محاولات الإنسان الأولى في الحضارات المدونة في التاريخ وربطها بالعناصر اللازمة للحضارة يقول: "قامت الحضارة الهندية إلى حد كبير على الرز، كما نشأ مجتمع متمدن فيما بين نهريين على الغلة، وفي مصر توافر البلح، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية توافر للزائقة، والانكا الذرة والموز"، (١٠١) ويخاطب محاوره لوسيان برايس الأمريكي بقوله: "أعتقد أنكم ستكسبون من الامتزاج بالعناصر الذكية القادمة من جنوبي أوروبا، ولو ترك العنصر الأنجلو الأمريكي القديم وحده لبقى على شيءٍ من الغباء". (١٠٢)

وكثيراً ما نرى هوايتهد يتعرض للموازنة بين ثقافتين: السامية والهيلينية، أي بين الشرق والغرب، ونلاحظ من كلامه أنه دائماً يفضل الثانية على الأولى، ومن أهم ما يهتم به في ذلك هو ما يتسم به الأولون - الساميون - من جهامة وصرامة، وما يتسم به الآخرون من روح الفكاهة والبساطة فيقول: "إن اليهودي مكتئب بطبعه، ولا يعترف لهم أحد بفضل العمل العظيم الذي أدوه، والأثر القوي الذي كان لهم في تقدم أوربا". (١٠٣)

وكما نلاحظ أن الموازنة بين الروم والعرب عند أبي حيان هي نفسها الموازنة بين الهيلينية - الشرق الأوسط - والسامية التي جذبت اهتمام هوايتهد، ولو نظرنا إلى قول أبي حيان أن الروم يتميزون بالعلم والحكمة، وأما العرب فيتميزون بالنجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان، وجدنا أن الفرق بينهما من وجهة نظره هو الفرق بين أهل التفكير النظري، وأهل الأخلاق العملية، أي هو الفرق بين الوجدان والعقل، وهذا الفرق لا يتعارض مع ملاحظة هوايتهد السابقة، إلا أنه - أي هوايتهد - يضيف فرقاً آخر، وهو أن جعل الروم (اليونان) أهل مرح وتفاؤل وسماحة، وجعل الساميين أهل تزمّت وجهامة. وفي المقابل نرى أبا حيان وبعد أن ينظر نظرة الإنصاف إلى شتى الأمم والشعوب يزهى بعروبته فيقول عن العرب: "إنهم مع توحشهم مستأنسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أظهر الأخلاق"، (١٠٤) ويضيف "ثم ملكوا الدور والقصور والجنان والبر والبحر، لم يقعدوا عن شأو من تقدّم بآلاف السنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم؛ بل أبرّوا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا، وهذا الحكم ظاهر معروف وحاضر مكشوف، ليس إلى مرده سبيل، ولا لجاحده ومنكره دليل". (١٠٥)

هذه كانت لمحة بسيطة عن أوجه التشابه والاختلاف بين هذين العالمين في محاوراتهم التي بين أيدينا، والتي لا يسع المجال لطرح المزيد منها، وفي الحقيقة إن المتصفح للكتابين يجد الكثير من الموضوعات التي التقى حولها التوحيدى وهوايتهد في شتى العلوم والمعارف وشئون الحياة عامها وخاصها، وإنني إذ أتوقف عند هذا الحد، فإنني أحيل القارئ إن أراد المزيد أن يطلع على هذين الكتابين.

## الخاتمة:

وبعد هذا الحديث عن فن من أرقى الفنون الإنسانية، فن الحوار والحديث، وما لهذا الفن من قيم فكرية وحضارية خالدة، وبعد أن وقفنا على مثالين، أحدهما من العصر العباسي والآخر من بداية هذا القرن، يجدر بنا أن نتساءل عن دور الحوار في حياتنا اليومية، وأقصد بالحوار ذلك الحديث الذي يرقى بمستوانا الفكري ويخلق به في آفاق العلم والمعرفة، ومن ثم الخروج منه بعظيم الفائدة، فأين ذلك مما نحن فيه هذا العصر، عصر "التلفاز" و"الفيديو" و"التويتر" وغيرها من وسائل الاتصال، هذه الوسائل التي لم تتح لغيرنا في السابق، فكان الأجدد بنا أن نستغلها أفضل استغلال، فقد أصبحت ليلينا هي ليالي سهرات تلفزيونية، تلك الأداة التي نتسمّر أمامها، نستقبل ما تبثه لنا في سلبية تامة- بثثة وسمينة؛ بل يكاد يخلو حتى من السمين، وإن بدا أحياناً في صورة حوار، فهو في الغالب لا يخرج عن سباب وشتم وجدل عقيم، وفي أفضل الحالات لا يرقى لمستوى الحوار.

فكم نحن بحاجة لأن تعود تلك الليالي والأمسيات إلى ما كانت عليه في السابق، سواء في منازلنا أم في جامعاتنا، هذه الجامعات التي يفترض أن تكون المنارة الأولى، والداعية السبّاقة إلى ذلك، فلا تخلو أيامها ولياليها من المناظرات والندوات وحلقات النقاش بحوارٍ هادف ببناء.

- (١) ابن منظور، لسان العرب، ط ٤، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٤، ص ٢٦٤، مادة (ح و ر)
- (٢) مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨٧.
- (٣) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٠.
- (٤) سورة البقرة، الآية ٢٩.
- (٥) سورة البقرة، الآية ٣٢.
- (٦) سورة البقرة، الآية ١٢٣.
- (٧) سورة البقرة، من الآية ٢٥٩.
- (٨) سورة الكهف، الآية ٣٤.
- (٩) سورة الكهف، الآية ٣٦.
- (١٠) سورة المجادلة، الآية ١.
- (١١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وتقديم: أحمد أمين وأحمد الزين، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ج ١، ص ١.
- (١٢) ينظر: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، دارة المعارف الإسلامية، دار الشعب، مج ١٠، ص ١٠٧ (التوحيد).
- (١٣) محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي (رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد)، د.ط، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، ١٩٨٣، ج ١، ص ١٥٤.
- (١٤) عبد الواحد الشيخ، أبو حيان التوحيدي، ط ١، الهيئة المصرية العامة، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ٤٣.
- (١٥) ينظر: التوحيدي، الإشارات الإلهية، ص ٢٥٤، ٣٦٣.
- (١٦) الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص ١٣٥.
- (١٧) ينظر: محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي، ج ١، ص ١٥٤-١٦٦، فقد أورد أغلب تلك الآراء.
- (١٨) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، د.ط، مطبوعات دار المأمون، مصر، ج ١٥، ص ٥.
- (١٩) ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ١١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٥، ج ١، ص ١٠٤.
- (٢٠) نفسه، ج ٨، ص ١٥٦.
- (٢١) نفسه، ج ٢، ص ١٩٦.
- (٢٢) أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص ١٠٩-١٢٨.
- (٢٣) نفسه، ج ١، ص ٣.
- (٢٤) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدياء، تح: إبراهيم السامرائي، ط ٣، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥، ص ٢٣٤.
- (٢٥) ينظر: التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص ٢١، ٣١، ٣٣؛ وج ٢، ص ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٤ وغيره.
- (٢٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٣١-٣٧.
- (٢٧) نفسه، ج ٣، ص ١٨٥-١٨٦.
- (٢٨) ينظر: الرسالة التي بعث بها إلى أبي الوفاء المهندس يشكو البؤس والفقر، الإمتاع، ج ٢، ص ٢٤-٢٦.
- (٢٩) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج ١٥، ص ١٨.
- (٣٠) جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨، ج ٢، ص ١٩٠.
- (٣١) ينظر: محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي، ج ٢، ص ٧٥٣؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ج ٢، ص ٥٠٩؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ١٢١؛ وياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج ١٥، ص ٧-٨.

- (٣٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ج٣، ص ٣٥٥؛ وابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج٦، ص ٣٦١ وما بعدها، طبعة حيدر آباد، ١٣٣١، وكل هذه الروايات وردت عن ابن الجوزي.
- (٣٣) معجم الأدباء، ج١٥، ص ٥.
- (٣٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج١، ص ٤٤٧.
- (٣٥) محمد كرد علي، أمراء البيان، ط٣، دار الأمانة، بيروت، ١٩٦٩، ص ٤٨٧-٤٨٩.
- (٣٦) ينظر: مقدمة الإمتاع والمؤانسة.
- (٣٧) ينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ج١، ص ١٧٧ وغيره.
- (٣٨) ينظر: محمد عبد الغني الشيخ، مصدر سابق، ج١، ص ٩.
- (٣٩) نفسه، ج١، ص ٤٦٦-٤٦٧.
- (٤٠) نفسه، ج١، ص ١٣.
- (٤١) ينظر: أحمد أمين، مقدمة الإمتاع والمؤانسة، ص: د-هـ.
- (٤٢) عبد الحميد بيومي، "أبو حيان التوحيدي وفلسفته"، مجلة الأزهر، مطبعة الأزهر، ١٩٣٩، م ١٠، ص ٧٦٣.
- (٤٣) الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص ١٥٠.
- (٤٤) نفسه، ج١، ص ١٠.
- (٤٥) ينظر: الإمتاع، ج١، ص ١٢٩-١٣٠.
- (٤٦) جمال الدين القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ج١، ص ٢١٤.
- (٤٧) ينظر: الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص ٥-٦.
- (٤٨) ينظر: الموسوعة العربية، م ٢٢، العلوم الإنسانية، ص ١٣٠؛ جونسون، فلسفة وايتهد في الحضارة؛ كولون ولسون، سقوط الحضارة.
- (٤٩) زكي نجيب محمود، من مقدمة كتاب محاورات ألفرد هويتهد، للصحفي: لوسيان برايس، ترجمة: محمود محمود، دط، دار المعرفة ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ١٩٦١.
- (٥٠) ينظر: الموسوعة العربية، م ٢٢، ص ١٣٠.
- (٥١) زكي نجيب محمود، مقدمة المحاورات، ص ١٨.
- (٥٢) ولد في مدينة كنت بولاية أوهايو، عمل محرراً لعدة صحف، ينظر: المرجع السابق، المقدمة.
- (٥٣) محاورات هويتهد، ص ٨٩.
- (٥٤) نفسه، ص ١٣٦، ١٩٢ وغيره.
- (٥٥) نفسه، ص ٥٥ وغيره.
- (٥٦) نفسه، ص ١٠٢ وغيره.
- (٥٧) نفسه، ص ٩٤-١٧٥ وغيره.
- (٥٨) نفسه، ص ٥٠-١٨٠.
- (٥٩) نفسه، ص ١٠٩-١٥٤ وغيره.
- (٦٠) نفسه، ص ٥٥-١٠٩-١٢١ وغيره.
- (٦١) نفسه، ص ١١٢-١١٥.
- (٦٢) نفسه، ص ١٤٥-١٨٧-١٨٩.
- (٦٣) نفسه، ص ٩٠-٩١.
- (٦٤) نفسه، ص ١٢٠-١٢٤-١٣٦-١٦٢.
- (٦٥) نفسه، ص ٥٥-٦٢-١٨٠.
- (٦٦) نفسه، ص ١٦٣-١٨٤.
- (٦٧) نفسه، ص ٥٣-١٧٦.
- (٦٨) نفسه، ص ٧٠-١٦٣.
- (٦٩) نفسه، ص ٧١-٧٠ ----- مجلة جامعة سبها (العلوم الإنسانية) (العدد الأول (٢٠١٣) ----- 146

- ٧٠) نفسه، ص ٧٣.
- ٧١) نفسه، ص ٥٨.
- ٧٢) نفسه، ص ٦٣.
- ٧٣) نفسه، ص ١١٦-١١٩.
- ٧٤) نفسه، ص ٦٥-١٢١.
- ٧٥) نفسه، ص ١٤٨-١٤٩.
- ٧٦) المحاور الخمسة، ص ٩٠.
- ٧٧) نفسه، ص ٨٩.
- ٧٨) المحاور، ص ١٤٨-١٤٩.
- ٧٩) نفسه، ص ١٨٩-١٩٠.
- ٨٠) نفسه، ص ٩٣-٩٨.
- ٨١) نفسه، ص ٨٤.
- ٨٢) نفسه، ص ١٣١.
- ٨٣) نفسه، ص ٨٥.
- ٨٤) نفسه، ص ٨٨.
- ٨٥) نفسه، ص ١٩٠.
- ٨٦) نفسه، ص ٨٩.
- ٨٧) نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.
- ٨٨) نفسه، ص ١٣٢-١٣٤.
- ٨٩) نفسه، ص ١٢١-١٢٤.
- ٩٠) نفسه، ص ١٣٧.
- ٩١) الإمتاع، ج ١، ص ١١١.
- ٩٢) المحاور، ص ٩٥-٩٦.
- ٩٣) الإمتاع، ج ٢، ص ١٣٢.
- ٩٤) نفسه، ج ١، ص ١٢٦.
- ٩٥) المحاور، ص ٣٩٢.
- ٩٦) نفسه، ص ٤٨٢-٤٨٣.
- ٩٧) نفسه، ص ٢٧١.
- ٩٨) نفسه، ص ٤٨٤.
- ٩٩) الإمتاع، ج ١، ص ٧٤.
- ١٠٠) المحاور، ص ٢٢٨.
- ١٠١) نفسه، ص ١١٢.
- ١٠٢) نفسه، ص ٣٨٠.
- ١٠٣) نفسه، ص ١٦٢.
- ١٠٤) ينظر: الإمتاع، ج ١، ص ٨٢.
- ١٠٥) الإمتاع، ج ١، ص ٨٥.